العرب
الإثنين 2021/09/27
السنة 44 العدد 12192

تأليف النكات يرعب المتسلطين في مصر

المصريون هم ثاني شعب في العالم تداول النكتة بعد السومريين

يمكن للسخرية أن تكون سلاحا مزدوجا، كما يمكن أن تكون مرآة يكتشف فيها المرء عن صورته بعيون الآخرين ويتلمّس دربه من خلالها إلى تدارك ما يمكن لترميم تلك الصورة. ويمكنها أن تكون من الأدوات المساعدة على الاستشفاء من الأدواء الاجتماعية، لكن أخطر أدوارها حين تتحول إلى النقد الثقافي الواعي والاجتماعي والسياسي، ما جعلها على مر التاريخ محل ملاحقة.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

تظل النكتة واحدة من وسائل تعبير المصريين عن أنفسهم في مواجهة القمع والكبت والإحباط التي تحيط بهم، وتتسبب في خلق معاناتهم وأزماتهم ومشكلاتهم اليومية، وهي وسيلة رفض وتحذير وتنكيل بكل ما من شأنه أن يهدد استقرار حياتهم، وسلاح يقاوم تردي الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

ويعتبر البعض النكتة سخرية وفكاهة وخفة ظل وتنفسا، لكنها في الحقيقة تشكل تحديا ورد فعل ومواجهة وصداما كاشفا عن خلل آليات الحكم والسلطة سواء تمثلت لدى المسؤولين الكبار أو الصغار. وهي فضلا عن ذلك تعد استطلاعا كاشفا لحقيقة موقف المصريين مما يجري من أحداث ومواقف داخلية وخارجية.

سخرية مؤثرة

يقدم الكاتب الصحافي طايع الديب في كتابه الجديد بعنوان "جمهورية الضحك الأول.. سيرة التنكيت السياسي في مصر" والصادر أخيرا عن مؤسسة بتانة، تأريخا ورصدا لسيرة التنكيت السياسي في مصر خلال الجمهورية الأولى أثناء حكم الرؤساء عبدالناصر والسادات ومبارك.

ويحكي الديب أبرز النكات ويتتبع حالات التنكيل والسجن والقمع التي مورست من أجهزة الدولة الأمنية على الكتاب والمثقفين والإعلاميين والقضاة وكل من تجرأ وقام بتأليف أو نقل نكتة ساخرا أو منتقدا لسياسات النظام ومسؤوليه، كما يرصد أثر ذلك على المجتمع وعلى الحكومة. ويناقش أيضا ظاهرة نقل النكت من مصر إلى الدول العربية، وإعادة صياغتها حيث تتناسب مع هذه الدول. وقد حظيت هذه النكت باهتمام الأوساط الأكاديمية في العالم، من جامعة السوربون في باريس إلى مختبرات العلوم الاجتماعية في موسكو باعتبارها نوعا فريدا من "الإعدام السياسي رميا بالنكات".

ويقول الديب "التحق كاتب مستجد بالعمل في خدمة كاهن بمعبد 'تحوت'، علما أن المعابد الفرعونية كانت بمثابة مؤسسات مكتملة تضم كل الصنعية والحرفيين، وانزعج الكاتب بسبب الضجة المنبعثة من غرفتي جاريه النجار والحداد، وليس أسوأ من جيرة واحد يدق وآخر يطرق ليل نهار. وأخبر الكاتب سيده الكاهن بذلك، فأعطاه مالا، وقال له: قدمه لهما مناصفة، وقل لهما أن يجدا مكانا آخر للسكنى. وقد كان، أخذ الحداد وزميله النجار المال من الشاب، وفي اليوم التالي انتقل كل منهما إلى غرفة الآخر! هذه، على عهدة الأثريين، هي ثاني نكتة في التاريخ بعد نكتة سومرية تعود إلى سنة 1900 قبل الميلاد وجدت مكتوبة على جدران أحد الحمامات العامة بموقع أثري جنوب العراق".

ويضيف "النكتة الفرعونية المدونة سنة 1600 قبل الميلاد سجلتها جدران معابد الأقصر وبها يكون المصريون هم ثاني شعب في العالم تداول النكتة. ومن أعظم آيات السخرية السياسية في العصر الفرعوني نقش بارز يكاد يصف حال المصريين المستضعفين في الأرض على مر العصور، وهو عبارة عن صورة لراع بائس وهزيل كأنه هيكل عظمي متحرك، يجر خلفه بحبل ممدود بقرة سمينة بشكل مبالغ فيه، في حجم سيد قشطة، يكاد ضرعها الهائل من فرط امتلائه باللبن بلا حَلب أن يلمس الأرض".

ويرى الديب أنه "إذا كان مبارك هو آخر رؤساء مصر الذين عرّضت بهم ألسنة صنّاع النكتة الحريفة المجهولين قبل ظهور 'نكت الكوميك' في أيامنا هذه، فإن عبدالناصر لم يكن أقلهم تعرّضا للتنكيت. فبعد دور 'الميثاق الوطني' الذي كتبه محمد حسنين هيكل بالنيابة عن الزعيم الراحل، وكان بمثابة دستور الحكم وقتها، أراد عبدالناصر أن يعرف رأي الناس في الميثاق، فخرج وحده متخفيا إلى أقرب قهوة، وهناك رأى أحد أولاد البلد جالسا بمفرده، فحياه واستأذنه، ثم جلس بجانبه، وطلب كوبيْ شاي له ولجليسه، وعزم عليه بسيجارة فأخذها الرجل شاكرا، وراحا يدخنان بشغف. وتبادل الرجلان حديثا وديا مستفيضا في أحوال الدنيا وتكاليف الحياة. ولما أحس عبدالناصر أن الرجل اطمأن له، سأله 'إلا قل لي صحيح.. إيه رأيك في الميثاق؟'. قال الرجل بحماس 'أنضف من الكليوباترا'".

ويتابع "وخرج السادات في بداية حكمه من بيته في الجيزة ليتمشى ليلا على غير هدى، فقادته قدماه إلى غرزة شاي مقامة على الكورنيش، فدخل، وهناك وجد 'المزاجنجية' الغلابة جالسين محلقين في الدخان الأزرق، طلب جوزة فجيء له بها، وبعد أن شد منها نفسا، أخذ يتكشف القعدة من حوله، فرأى رجلا بشارب ضخم إلى جانبه. قال له الرجل في ود بالغ: نورتنا يا أفندي، محسوبك المعلم برعي أبوشفطورة 'داير الناحية'.. اسم الكريم إيه بقى؟ رد السادات ساهما: أنا رئيس الجمهورية. قال المعلم برعي: كده من أول نفس؟ ليلتنا فل بالصلاة على النبي".

وذات ليلة من العام 1983 ردد الكوميديان الراحل سعيد صالح على خشبة مسرحية "لعبة اسمها الفلوس" عبارة شعبية كانت متداولة في الشارع المصري آنذاك تختصر سير حياة الرؤساء الثلاثة عبدالناصر والسادات ومبارك على التوالي. قال صالح "أمي اتجوزت 3 مرات، الأولاني 'وكلنا المش'، والثاني 'علمنا الغش'، والثالث 'لا بيهش ولا بينش'"، فحكم عليه بالحبس ستة أشهر مع الشغل والنفاذ بتهمة تعاطي الحشيش. أما الرئيس الأسبق محمد مرسي فقد كانت السنة اليتيمة التي حكمها هي نفسها نكتة كبيرة، حيث أحاطت خطبه واجتماعاته الكوميدية وأشهرها جلسة سد النهضة بكل النظريات السياسية المتعارف عليها في العالم المتحضر، بما في ذلك نظرية الكاتب الانجليزي برنارد شو "إن حكم أمة أسهل من إضحاكها".

ثلاثة رؤساء

يشير الديب إلى أن عبدالناصر كان في بداية حكمه مستمعا جيدا، يتمتع بصبر يحسد عليه، يستطيع معه الاستماع لشخص ولو تكلم أكثر من ساعتين بلا مقاطعة أو تململ. وبدلا من قولهم في مثل هذه الحالات إنه شخص واسع الصدر أو "قلبه كبير" بالتعبير المتداول، قال الشاعر والصحافي كامل الشناوي إن عبدالناصر "وِدَانُه كبيرة".

غير أن التعبير الذي يفهم منه ضمنا أن عبدالناصر "حمار" لم يمر بسلام، فقد وصل إلى مسامع الرئيس عن طريق الجهاز الأمني المسيطر، خصوصا أن الشناوي الشاعر البوهيمي، البيه الصعلوك، كان من المغضوب عليهم في أول عهد ثورة الثالث والعشرين من يوليو، بادعاء تلقيه مع صحافيين آخرين منهم مصطفى أمين وأحمد أبوالفتوح وإحسان عبدالقدوس "مصاريف سرية" من القصر الملكي قبل الثورة، كما كان الشناوي واحدا من نجوم الطبقة الارستقراطية المصرية في العهد البائد، وهو التعبير المعتمد وقتها لوصف ما قبل ثلاثة وعشرين يوليو 1952.

وحينما تبينت براءة الشاعر من تلك التهم المشينة، كلفه عبدالناصر برئاسة تحرير جريدة الجمهورية الناطقة باسم الثورة كنوع من رد الاعتبار. غير أن الشناوي لم يكن بالرجل سهل الترويض، ليس باعتباره معارضا محتملا لحكم الضباط، فهو بحكم تكوينه الأقرب إلى الفنان أقل وزنا من ذلك، بل لكونه ابن نكتة، وهوايته الأثيرة هي التشنيع وتدبير المقالب وتأليف النكت بلا هدف، سوى السخرية من السياسيين ونجوم مجتمع ما بعد الثورة من باب "الضحك للضحك".

ويقول الديب "سعى السادات لتغيير مصر رأسا على عقب بعد أن استتب له أمر الحكم، لكنه لم يغير نظام الاستفتاء العام الذي اخترعه عبدالناصر بدل الانتخابات الرئاسية، حيث كان يطرح اسمه هو وحده للاستفتاء العام على الشعب الذي كان يختار بين "نعم" و"لا".

النكتة الموظفة سلاح خطير (لوحة للفنان بسيم الريس)

ومع أن نسبة المشاركة في هذه الاستفتاءات كانت تقترب من الصفر، تأتي النتيجة دائما بتجديد الثقة فيه رئيسا للجمهورية بنسبة تزيد على 90 في المئة وكأنه طالب متفوق في الثانوية العامة بمقاييس ذلك الزمن. ومن أشهر التعابير في تلك الفترة أو "الإفيهات" بلغة هذه الأيام قول السادات في خطاب الثقة بعد ظهور نتيجة الاستفتاء "أتوجه بالشكر لشعب مصر العظيم على هذه الثقة الغالية وأشكر كل من قالوا 'نعمْ'، أما 'نعيمة' فلها مني شكران؛ لأنها قالت 'نعمين'".

> الكتاب يحكي أبرز النكات ويتتبع حالات التنكيل والسجن والقمع التي مورست من الدولة الأمنية على الكتّاب والمثقفين

وقيل إن السادات استدعى الكاتب محمود السعدني الذي نسب إليه تأليف العشرات من النكت منذ عهد عبدالناصر وحتى عصر السادات نفسه، فلما جاء سأله "كيف تؤلف النكت ضدي يا ولد يا 'سعدني' وأنا رئيس اختاره الشعب عبر الاستفتاء العام أمام سمع وبصر العالم بنسبة 90.04 في المئة؟"، فقال السعدني "والله يا ريس النكتة دي مش من تأليفي".

وظهر الفساد أيام الرئيس حسني مبارك في كل مستويات الحكم على استحياء، ثم راح يكشف عن نفسه بكل جرأة، بعد أن كانت مصر على عكس ما قاله مبارك في أيامه الأولى "عزبة لحاكمها وأبناء حاكمها". ويحكي الديب "كان مبارك يفتتح مصانع جديدة في منطقة برج العرب، وبعد جولة بالمدينة، دخل إلى أحد المصانع وسأل عاطف صدقي رئيس وزرائه 'المصنع لمن يا عاطف؟'، قال عاطف هامسا له في أذنه 'هقول لسيادتك بعدين يا أفندم'. دخلوا المصنع اللي بعده، والثالث والرابع، فحدث نفس الشيء. وفجأة صرخ مبارك في رئيس وزرائه 'أنا كل ما أسألك المصنع ده بتاع مين يا عاطف تقول لي هقولك بعدين'، قال عاطف 'المصانع دي كلها بتاعة الأستاذ علاء يا أفندم'، قال مبارك 'هو معقول علاء عمل كل ده من مصروفه؟'".

هاني الهياجنة: الثقافة ليست نتاج العزلة

الشارقة – يؤكد أستاذ حضارات المشرق العربي القديم في كلية الآثار والأنثروبولوجيا بجامعة اليرموك والخبير المعتمد لدى اليونسكو في حقل التراث الثقافي غير المادي الدكتور هاني الهياجنة أن التراث الثقافي يعد حقا من حقوق الإنسان.

ويقول الهياجنة، السفير العلمي لمؤسسة ألكسندر فون همبولت الألمانية لدى الأردن، في حديث معه خلال مشاركته في ملتقى الشارقة الدولي للراوي في دورته الـ21 في الشارقة والذي اختتم فعالياته مساء الأحد، إن الحقوق الثقافية هي حقوق أساسها الهوية؛ فالثقافة تنطوي على طاقة كامنة قادرة على تطوير إمكانات الفرد والمجتمع، وهي حق إنساني يقرر هوية الفرد، وهي ليست نتاجاً للعزلة إنما للعلاقات المتبادلة مع الإنسان ومحيطه.

ويبين أن التراث الثقافي يمثل أحد العناصر المهمة لتكوين هوية ثقافية مرتبطة بالتعددية والتنوع الثقافي، وهو أمر ضروري لحياة المجتمع العربي في هذه المرحلة التاريخية من تطوره، موضحا أن للهوية عموماً العديد من المكونات، منها التاريخ والتراث والثقافة والدين والعِرق واللغة والوعي، وهي جملة من المعطيات المعقدة من الخصائص والميزات المختلفة والمتداخلة.

ويلفت إلى أن للعالم العربي نظامه الثقافي الخاص بقيمه العامة المشتركة، تتفرع عنه أنظمة ومستويات فرعية تتصل بتعددية الجماعات والمجموعات وتنوعها، والمناطق التي تنتمي إليها، وهي ما تشكل بمجملها هوية عالمنا العربي الديناميكية في إطار ثابت يتشكل من التراث الاجتماعي والثقافي والطبيعي والاقتصادي، علاوة على الهوية الحية للشعوب العربية بما تتضمنه من طرائق الحياة اليومية وأسلوب الحياة المعاصرة.

وحول تأثير وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي والعصر الرقمي في موضوع التراث الثقافي، يقول الدكتور الهياجنة إن قطاع الإعلام وتكنولوجيا المعلومات في مجال التراث الثقافي يشمل استخدام مجموعة كاملة من الاتصالات الجماهيرية الصحافية والفنية والمطبوعة والإلكترونية والواسعة النطاق لإعلام المجتمع التراثي المهني والجمهور العام حول الأساليب والأنشطة والخطط الهادفة لتشجيع فهم التراث الثقافي وحمايته، وحفظه وتوثيقه، وحصره ونقله إلى الأجيال الحالية والمستقبلية.

كما تعد وسائل التواصل الاجتماعي، بحسب الهياجنة، إحدى أهم المنصات لتعزيز عملية المشاركة العامة للحفاظ على التراث الثقافي، لافتا إلى أننا لا نجد تقييماً شاملا وعميقاً في هذا المضمار.

ويدعو الهياجنة إلى تكوين صورة أكثر شمولاً لوظائف منصات التواصل الاجتماعي في العالم العربي وتأثيراتها على التنمية الثقافية المستدامة، من حيث تحديد خصائص أدوات التواصل الاجتماعي التطبيقية، مستعرضا أدواتها وتأثيراتها للإجابة على مدى أهمية وسائل التواصل الاجتماعي في توفير منصة على نطاق واسع، وبمشاركة مجتمعية واسعة، بما يسهم بطريقة ديمقراطية في عملية التخطيط التشاركي واتخاذ القرار بشأن الإدارة المستدامة للتراث الثقافي ودوره التنموي.

ويتابع أنه من ناحية أخرى، فقد خلقت التقنيات الرقمية تغيراً سريعاً وجوهرياً في ممارسات استخدام التراث الثقافي وحفظه، حيث تؤثر تقنيات الرقمنة والبنى التحتية لشبكة الإنترنت على مختلف الأنشطة التي تقوم بها المؤسسات الثقافية، الأمر الذي يسهم بتحفيز إنتاج السلع الثقافية، وتحسين حالة إدارة التراث الثقافي.

ويلفت الهياجنة إلى أن الرقمنة تؤثر على العرض والطلب على التراث والطبيعة الاقتصادية للسلع والخدمات التراثية، كما تسهم رقمنة السلع الثقافية باعتماد تكنولوجيا التخزين، جنباً إلى جنب مع انتشار روابط الشبكة العنكبوتية في الحد من كلفة الوصول إلى مواقع التراث الثقافي وعناصره، والتحرر من القيود الجغرافية والزمنية لذلك.

وبخصوص التراث الثقافي في أوقات الأزمات وحمايته التشريعية والقانونية، يؤكد على ضرورة احترام هذا المنتج الثقافي الإنساني وحمايته قانونياً وتشريعياً، بعد القيام بحفظه وصونه بالطرق والمناهج المناسبة من خلال القوانين الوطنية والمعاهدات الدولية.

> الثقافة تنطوي على طاقة كامنة قادرة على تطوير إمكانات الفرد والمجتمع، وهي حق إنساني يقرر هوية الفرد

ويقول الهياجنة إنه من المعروف أن الاتجار غير المشروع بالقطع الأثرية وقطع التراث الثقافي عموماً ونهب المواقع الأثرية وتدمير المباني والمعالم التاريخية، عوامل تؤدي بالتراث الثقافي لأي بلد إلى ضرر لا يمكن إصلاحه، مشيرا إلى أن المنظمات الدولية، لاسيما اليونسكو، اعتمدت اتفاقيات دولية لحماية التراث الثقافي والطبيعي بهدف تعزيز التفاهم بين الثقافات، مع التأكيد على أهمية التعاون الدولي في هذا المجال، ومرد ذلك أن حماية الممتلكات الثقافية من أكثر القضايا صعوبة من حيث التوفيق ما بين مصالح الفرد والمجتمع، وتحقيق التوازن ما بين الحقوق الخاصة والعامة.

ويوضح أن اليونسكو حددت تدمير التراث، سواء كان بالحرب أو الاستغلال التجاري أو النهب بأنه شكل من التطهير الثقافي، علاوة على تغير المناخ والسياحة والكوارث الطبيعية والتنمية الحضرية، واستخراج المعادن والموارد.

ويلفت إلى أنه بالرغم من الحفاظ على العديد من المواقع التراثية من أجل تشجيع الإيرادات السياحية، إلا أنه يمكن للسياحة كذلك أن تسبب دماراً هائلاً للمواقع بفعل الأعداد الكبيرة من زوار هذه المواقع.

ويتابع "إذا كان التدمير أثناء الحروب يشبه الموت المفاجئ للتراث الثقافي؛ فإن النهب مرض مستشرٍ يؤدي إلى تآكله ببطء، وذلك بسرقة عناصره وعرضها للبيع".

وحول أهمية التراث الثقافي في تنمية الصناعات الثقافية الإبداعية، يقول الهياجنة إن العالم أدرك منذ زمن، وعلى نطاق واسع، أن الصناعات الثقافية والإبداعية هي محركات مهمة للنمو الاقتصادي والتوظيف، مشيرا إلى أن الثقافة والإبداع من ركائز الاستراتيجيات الأساسية لتحقيق نمو ذكي ومستدام وشامل.

التراث الثقافي حق من حقوق الإنسان